مجلة الحكمة للدراسات الفلسفية
Eissn :2602-5264 Issn : 2353-0499
المجلد 8 / العـدد: 01 (2020)، ص ..- ..

الدين قضية فردية - مقاربة كيركغاردية في نقد الدين الجماهيري -

Religion is an Individual Issue - Kierkegaard's Approach in Criticism of Mass Religion "

مصبايح أسماء [1] ، عبد الرحمان بوقاف [2] .

[1]مخبر الأكسيولوجيا ، جامعة ابوالقاسم سعد الله –الجزائر2. ، asma.mesbaiah@univ-alger2.dz

[2] جامعة ابو القاسم سعد الله – الجزائر 2 ، boukaf@hotmail.com

تاريخ الاستلام: ../../2020 تاريخ القبول: ../../2020 تاريخ النشر: ../../2020

ملخص

تعتبر قضية العلاقة بين الفرد والديّن من أهم القضايا التي اشتغلت بها الدراسات الدينية مؤخرا، نظرا للخلط بين مسألة الدين والتدين، ولعل أبرز المعالجات الفلسفية المعاصرة الجديرة بالذكر حول الدين نجدها في موقف سورن كيركغارد الفيلسوف الوجودي، الذي أثار قضية شائكة تخص طبيعة الدين وعلاقته بالفرد وبالدولة أين رفض بشدة الممارسات الجماهيرية للدين والتي لا تعبر حسبه البتة عن فحوى روح الإيمان .

إن قلة الدراسات الكيركغاردية عن الساحة الفلسفية في العالم العربي في الآونة الأخيرة ، خاصة الدينية منها ، هي السبب الرئيسي في اختيار فلسفته نموذجا للدراسة ، بهدف توضيح عمق البناء الوجودي الذي وضعه، وخاصة توضيح موقفه الديني وسعيه لدحض الآراء و الممارسات الخاطئة التي شوهت روح الإيمان ، والتأكيد على أنه فعل وجودي يضع الفرد أمام وجوده الفعلي وأمام الله وحده .وهو ما نوضحه في العرض من خلال إتباع المنهج التحليلي المقارن ، وتبيان الفرق في التحليل الفلسفي والديني الذي أسسه من خلال المذهب الوجودي .

كلمات مفتاحية : وجود ، الدين، الفرد ، الحقيقة، المفارقة .

Abstract

The relation between religion and individual, is one of the important task in modern studies of religion and philosophy because of its influence on human being and whole society.

Søren Kierkegaard one of the contemporary philosopher who made a new view of this relation, where he strongly rejected the public practices of religion, and confirmed that religion is completely personal and individual issue, and it does not need crowds or state , and it is an exceptional relationship through which the truth of the individual is revealed at the highest levels of existence, and through which the paradox is realized when its unites what means to exist with the eternal truth.

Keywords: individual, religion, truth, paradox, existence.

المؤلف المرسل: مصبايح أسماء.

1. مقدمة

تحتل فلسفة الدين مكانة كبيرة في التفكير الفلسفي خاصة بعد بروزها في المرحلة الوسيطية أين أصبح الدين موضوعا أساسيا للبحث الفلسفي، ولقد استمر الاهتمام بهذا الموضوع في المراحل اللاحقة من التاريخ الفلسفي، واختلفت المسائل المتعلقة بالدين وتحليلاتها باختلاف الاتجاهات الفكرية والتيارات الفلسفية، فقد اهتمت معظم تيارات الفلسفة الحديثة بتبرير الدين عقلانيا كمحاولة تفسير تعاليمه واثبات وجود الله مثلا، كما اهتمت الفلسفة المعاصرة بهذا المبحث أيضا،على اختلاف مفكريها، ومن بين الجهود الجدية والجديرة بالذكر "مقاربة سورين كيركغارد" الفيلسوف الوجودي، في محاولته نقد الدين الجماهيري القائم على تعاليم الحشود البعيدة كل البعد عن فحوى روح الإيمان، وسعيه لإقامة تصور جديد لمفهوم الدين، يتماشى مع منظوره الفلسفي للحياة بصورة عامة، آخذا على عاتقه مهمة تصحيح التصور السائد حول الدين والدعوة للمسيحية الحقه، بعيدا عن تزيفات ومغالاة رجال الدين، الذين لطالما اصدم معهم في مواجهات عدة. إن هذا الجو الفلسفي والديني المشحون يدفعنا إلى طرح أسئلة متعددة حول الموضوع، وصياغة إشكالية بحثنا كالآتي :

ما هي النقاط التي رفضها كيركغارد في الدين الجماهيري ؟ وما هو البديل الذي قدمه عنها ؟

ما هي الأسس التي أقام عليها سورين كيركغارد فلسفته الدينية ؟ وكيف برر موقفه من علاقة الفرد– الدين؟

كيف تلعب علاقة" الفرد – الدين" الذاتية، الدور الحاسم في الرقي بالوجود الإنساني وبلوغ الفرد الحقيقة المطلقة؟

استدعت محاولة الإجابة عن هذه الأسئلة إتباع المنهج التأويلي لفهم واستخلاص أبعاد مقولتي الدين والإيمان في فلسفة كيركغارد الوجودية، وكذا المنهج التحليلي المقارن للوقوف على أهم مستجدات الطرح الكيركغاردي لقضية الدين مقارنة بالطرح الكلاسيكي الموضوعي، ومحاولة إبراز أهمية هذا الطرح الجديد الذي من شأنه أن يساعد على فهم الإنسان الفرد وطبيعته وعلاقته مع خالقه، وهو ما يتبين لنا من خلال معالجة النقاط التالية:

1- نبذة مختصرة عن حياة كيركغارد الدينية :

أين سنسلط الضوء على تنشئة كيركغارد الدينية وتأثيراتها على توجهه الفكري والفلسفي وعلى حياته بشكل عام .

2- التوجه الديني في عصر كيركغارد:

سنعرض من خلال هذا العنوان أهم الأفكار والممارسات الدينية في عصر كيركغارد، وكذا الإشارة إلى أصولها والمحرك الأساسي لها .

3- علاقة " الفرد-الدين " في الموقف الكيركغاردي :

نبين هنا الموقف الكيركغاردي من العلاقة والأسس التي أقامه عليها والتبريرات التي استند إليها.

4- فردانية الدين في الميزان:

أين سنُعرِّضُ الموقف الديني لكيركغارد لميزاني النقد والتقييم ، لمعرفة أبعاد وحدود هذا الطرح .

2. نبذة مختصرة عن حياة كيركغارد الدينية

ولد سورين كيركغارد في الخامس من ماي ألف وثمان مئة وثلاثة عشر في كوبنهاجن الدانمركية، وهو الابن الأخير لعائلة تتكون من تسعة أفراد، توفيت أمه وهو في الواحد والعشرين من عمره ، وكانت أما شفوقة حانية ورث عنها الجانب الروحي رغم قلة حديثه عنها (برانت، صفحة 9)، كونها كانت خادمة في بيت أبيه الذي تزوجها بعد وفاة زوجته الأولى ، وعلى العكس من ذلك فقد كان كثير الإشادة بوالده ميخائيل، وذلك نظرا للعناية الكبيرة التي عناه بها كونه آخر أبنائه وإشرافه على تربيته بصورة خاصة (Hohlenberg ,1978 , p27) ، ولقد عرفت مرحلة الطفولة في حياة كيركغارد خاصيتين ، تتمثل الأولى في انفصاله عن الواقع والخوف من مواجهته نظرا لتشوهاته الجسدية التي كانت

تجعله مختلفا عن أقرانه، ما دفعه إلى العودة إلى الذات وهي الخاصية الثانية ، أين لم يتبق أمامه سوى ذاته بما فيها من مشاعر وعواطف (إمام 1982،صفحة85) ، كما عاش في مرحلة الشباب تجارب مختلفة، وكان لوالده التأثير الكبير فيها، ساهمت كلها في تدعيم فكرة مركزية الذات عنده، ومن أهم هذه التجارب : النزهات الخيالية التي كان يقودها أبوه في غرفة مغلقة، تطورت من خلالها ملكة الخيال عنده، ليعوضه عن بعده عن الواقع و الانخراط به، وهو ما ساهم في نظر هولنبرج على تنمية قدراته في النفاذ إلى باطن الناس و أفكارهم والتمييز بين ما يكون واقعا وما لا يكون(Hohlenberg , 1978 , p35)، كما لعبت تجربة الإصغاء العميق دورا فعالا في إثراء فكره خاصة في الأمور التي تتعلق باللاهوت بفضل مناقشات الأب مع أصدقائه حول قضايا مختلفة ، سمحت له من خلال التنصت عليها إثراء رصيده الفكري والفلسفي وتنمية قدرته على النقد والحوار، وكان الأثر الكبير لوالده عليه من خلال التجربة الدينية، فقد تربى سورين ككل إخوانه على شكل صارم من المسيحية تؤكد بصفة خاصة معاناة المسيح ، فأصبح هذا التصور التجربة المهيمنة لدى كيركغارد ما جعله يكتب في مواضع عدة: أن الانطباع السائد للمسيح الذي تكون في طفولته قد جعله تعيسا إلى حد كبير، نظرا للمعانات التي أورثه إياها والده ليعيش طفلا بظلام عجوز سوداوي(إمام 1982،صفحة95).

لقد كان كيركغارد شغوفا بقراءة مجلات اللاهوت و الفلسفة وعلم الجمال ، واختار كلية اللاهوت ليواصل دراسته الجامعية بها مثل أخيه الأكبر بطرس ، وتقدم لاجتياز القسم الأول والثاني من امتحان اللاهوت بنجاح ليصبح رسميا طالبا في اللاهوت ، لكن سرعان ما قل نهمه للدراسة خاصة وأنه كابد حالة عنيفة من التشوش والقلق دفعته للتوقف عن الدراسة ليستريح في مصيف جليليج الساحلي صيفي 1834-1835 ، ليعيش بعدها سنوات الضياع (كما أسماها هو) أين دخل حياة اللهو والعربدة واللامسؤولية التامة ، ليخرج منها في الأخير بتجارب باطنية وخارجية عدة ، وتصالح مع والده قبل أن يتوفى في أوت 1838 ، ليواصل بعده كيركغارد دراسته ويجتاز امتحاناته النهائية في اللاهوت ويتخرج بعد عشر سنوات من الدراسة .

ومن المحطات الهامة أيضا في حياة سورين كيركغارد والتي لها صلة وثيقة بتصوره الديني، قصة حبه لريجينا أولسن ، التي أحبها حد الهيام لكنه اضطر لفسخ خطوبته منها،حماية لها من الأسرة اللغز التي ينتمي إليها ، فلم يكن يستطع إخفاء أسرارها –وهو ما يتنافى مع تصوره لطبيعة الزواج وتكوين أسرة والذي

ينبغي أن يبنى على شفافية تامة –، ولا البوح لها بآلام خطيئة والده الكبرى عندما كان صغيرا وسخطه على الإله في أعلى مراعي جوتلند، ما جعله يعيش حياته حاملا أعباء الخطيئة والتي حمّل قلقها وأعباءها نفسية كيركغارد، فآثر على نفسه الابتعاد عنها والتضحية بحبه لها سائرا في ذلك درب الأنبياء والصالحين فدفعته هذه الأوضاع المأساوية إلى أن يغيّر نظرته إلى مفهوم المحبة والسعي إلى التضحية بحبه الأدنى بغية الفوز بالمحبة الربانية السرمدية على الشاكلة الإبراهيمية المدثرة بمفهوم الفداء.

3. التوجه الديني في عصر كيركغارد

كان توجه اللاهوت بالدانمرك في القرن الثامن عشر يتجه نحو الاتجاه العقلي في تفسير عقائد الدين وفي تقدير الكتب المقدسة (بدوي،1984،صفحة 327) ، وهو الاتجاه الفكري الذي أفرزه عصر التنوير أين لا يمكن للإنسان أن يتقبل أي معرفة أو فكرة خارجية إلا بعد دراستها وتحليلها عقليا ،لتصبح بذلك العقلانية ومبادئها أهم وسائل تأسيس النظام الشرعي للأخلاق والمعرفة، هذا ويعتبر **رونيه ديكارت** الفيلسوف الفرنسي المروج الأساسي لهذه الفكرة ، والتي طبقها على كامل نسقه الفلسفي وحتى آرائه المتعلقة بالدين، أين ذهب في تفسير العقائد واثبات وجود الله إلى ثلاث أدلة عقلية بحتة ، وهو ما أورده في كتابه تأملات ميتافيزيقية في الفلسفة الأولى كدليل الكمال ودليل الخلق المستمر والدليل الأنطولوجي .

لقد أفرز عصر التنوير حركات مناهضة للكنيسة والتمرد على الدين ، ونظرا لتقاعس الكنيسة آنذاك عملت الديانات الفردية على الانتشار بشكل أكبر داعية للتدين القلبي وإحياء المسيحية التقليدية ، وأفضل تمثيل لهذا الاتجاه في المجال الفلسفي نذكر **امانويل كانط**، الذي هز العالم وأيقظه من نومه العقائدي في عام 1781م، من خلال شعاره " أجرؤ على استخدام فهمك الخاص" في محاولة منه رد الاعتبار الكامل للنزعة الفردية، ولقد لعب كانط دورا كبيرا في ذلك بإخراج كتابه "نقد العقل الخالص"، الذي ضمنه نظريته في المعرفة، والتي جمعت بين النقيضين العقلي والتجريبي من خلال فكرة كانط في تمييزه بين النومان والفينومان، إلاّ أن هذا التمييز وضعه أمام مشكلة كبيرة في كيفية إدراك العقل للنومان، وأفكار عالم الروح ، فغلق في كتابه "العقل في حدود الدين" المجال الواسع للعقل الذي فتحه في "نقد العقل الخالص" ، وذهب إلى أنه باستطاعة الفرد أن يكوّن أفكارا أخرى عن وجود الله ووجود العالم، وهي في نظر كانط أفكار خالصة كالأفكار الأفلاطونية، إنها أفكار العقل الخالص التي تختلف عن مفاهيم ملكة

الفهم ومقولاتها من حيث أنه لا يوجد لها مقابل في العالم المحسوس. وإذا كانت مقولات الفهم لا تنطبق إلا على ظواهر العالم الخارجي، كانت معرفة النومينات (الروح، الله، العالم) مستحيلة بها.

ولهذا يذهب كانط إلى أنه يمكننا تشكيل" فكرة "عن النومينات تبرر الإيمان وتجعل منه شيئا معقولا، وهو ما عبر عنه بقوله: "لقد بدا لي أنه من الضروري أن أضع للمعرفة حدودا...من أجل أن أفسح مجالا للإيمان". متبعا بهذا طريق الإيمان القلبي ، فإذا كان من غير الممكن معرفة الله، فإنه لا شيء يحول دون التفكير فيه ليكون للوجود وللحياة معنى ، كما ينطبق هذا الحكم أيضا على القضايا المتعلقة بالنفس وحرية الإرادة والاختيار. إن موضوعات أفكار العقل الخالص متعالية،لا توجد إلا في العقل الخالص باعتبارها التركيبة النهائية التي تلم شتات معارفنا، وتوجه نشاطنا الفكري لاكتساب مزيد من المعرفة، وتؤدي، بالإضافة إلى ذلك، وظيفة التوجيه الأكسيولوجي لسلوك الإنسان.

يؤكد كانط أنّ الإله الذي يفرضه اللاهوتيّون والحكماء الربّانيون هو ممّا تذعن به قلوبنا، إلاّ أن محاولتهم إثبات وجوده بأدلة عقلية فهو مستحيل لأنّ تحصيل اليقين في هكذا نوع من المبادئ لن يتأتى بالدليل العقلي، وكلّما قدّموا دليلاً لم يكن وافياً ولا مقنعاً (قنبري ، 2014)

باختصار فان دليل الإيمان حسب كانط يخضع للإطار العملي الأخلاقي ، أين يلعب العقل العملي الدور الأساسي في صنع الأخلاق التي تمثل جوهر الدين ، ويقول في هذا "بدون إعمال الأخلاق في الحياة يغدو كل ما يمارسه الإنسان في مرضاة الرب زعماً دينيّاً وعبودية كاذبة ومفتعلة(قنبري ، 2014) ".

من الفلسفات الهامة التي كان لها الأثر الواضح على التوجه الديني لفلاسفة القرن الثامن عشر أيضا ، فلسفة هيجل، والتي أولت أهمية كبيرة للتاريخ في التفسير، ولقد اختار هيجل العودة للاهوت القائم على العقل، مسدلا الستار الذي وضعه كانط بين العقل والدين ، فقال: « لقد بلغ الأمر مبلغاً هذه الأيام جعل الفلسفة أمام خيار وحيد، هو الدفاع عن مضمون الدين أمام بعض مذاهب اللاهوت... فإذا أردنا معرفة الله فلابد لنا من اللجوء إلى الفلسفة، صحيح أنّ العقل كلّما حاول معرفة الأشياء المتعلقة بالربّ اتّهم بالخروج عن النص... وعلى العكس من ذلك، فإنّ حقيقة التواضع هي أن نعرف الله ونقدّره لا سيما في الدائرة التاريخية» (قنبري ، 2014)

أدّت فكرة هيجل الدينية وكيفية الدفاع العقلاني عنه في صورة الديالكتيك إلى ظهور تيارات ثلاثة في تفسير حقيقة الدين والمعتقدات الدينية، إذ كان التيار الأول يدور حول اعتبار الدين نتيجةً لاضطرار الإنسان، فيما تمحور الثاني حول اعتباره ناتجا عن اضطرار المجتمع، أما الثالث فدار حول مدخلية إيمان المتديّنين في مواجهة الرب. ليصبح التفسير الديني بعد ذلك مسرحاً لنظريات علم النفس والاجتماع (قنبري ، 2014).

4. علاقة " الفرد–الدين " في الموقف الكيركغاردي

لقد قدم كيركغارد منظورا مختلفا عمّا كان متصورا في عصره عن الظاهرة الإيمانية، ما جعل موقفه عن الدين خاضعا لضروب عديدة من سوء الفهم ، فلعل الفكرة الشائعة التي لحقته هو وفلسفته خاصة الدينية أنها موجهة لنقد الدين المسيحي، لكن على العكس من ذلك، فإن المتمحص في فكر كيركغارد الديني، تنكشف أمامه جدية هذا الأخير في تصحيح المنظور الديني ومفهوم الإيمان وعلاقتهما بالفرد، ففي حين عمل فلاسفة التنوير على اعتبار جوهر الدين يتوافق مع العقل، من خلال جهد الذات لإدراك الحقيقة المطلقة المؤدية إلى الإيمان، بصفته روحا عامة وموقفا من المجتمع والأخلاق(ميخائيل ، 2009، صفحة6) ، نجد أن كيركغارد عمل جاهدا ليؤكد أن الدين هو قضية شخصية فردية، يعيشها الإنسان من خلال تجربته الخاصة، وأنه لا يحتاج إلى وسيط بينه وبين خالقه، بل إن رابط الإيمان ذاتي، ناتج عن تجربة داخلية تقوم في مجملها على الشعور العميق بالقلق والشك واليأس، فالتجربة الدينية بهذه الخصائص لا تحتاج أبدا إلى برهان عقلي ، بل إلى تجربة روحية فردية، يرتقي بها الفرد إلى إدراك الحقيقة المطلقة، والذي تتحقق من خلاله المفارقة حين يتوحد ما يعني أن توجد، مع الحقيقة الخالدة .

ركّز كيركغارد في دعوته إلى منظور ديني جديد على دحض الاتجاه السائد في عصره، وخاصة الانغلاق التاريخي الذي أفرزته فلسفة هيجل على مختلف مناحي الحياة، خاصة وأن فلسفة هذا الأخير تجاهلت ما هو فردي وموجود فعلا كغيرها من الفلسفات المثالية ، فأذابت الفرد العيني وميزاته في الكل – الدولة –،وكان أحد أسباب نقد كيركيغارد لهيجل هو محاولة هذا الأخير ربط عالم الإنسان الباطني والخارجي في نسق عقلي، متجاهلا دور الفرد في بنائه .

أمّا عن توجهه الديني، فيرفض كيركغار د تصور هيجل للمسيحية على أنها مرحلة تاريخية ينبغي تجاوزها، بل يعتبرها كيركيغارد علاقة بين الله والفرد، لا يمكن تفسيرها من خلال مرحلة تاريخية انتهت، بل إنها قصة معاناة وجودية دائمة الحضور من خلال الفرد المؤمن وليس من خلال التأمل المجرد (شطارة،2014، صفحة 522) ، فالإيمان هو الحاسم في تحديد طبيعة هذه العلاقة، كما يرفض كيركغارد التنظير للدين–المسيحية – أو محاولة فهمه نظريا، وأن كل من يدعي ذلك فهو مخطئ تماما، فالدين يحتاج إلى تجربة داخلية، تقوم على القلق والعمل والاجتهاد، وهو ما جعله ينتقد الدياليكتيك الهيجيلي الذي يصبو إلى فرض علاقة عقلية بين الله والإنسان، لكنه في الأخير يضعنا أمام وهم الروح المطلقة التي تضيع من خلالها العلاقة، وعلى العكس من ذلك يؤسس كيركغارد دياليكتيكيته القائمة أساسا على العمل، ليكون الاعتقاد آخر مراحل التحوّل الذي يعيشه الإنسان في طلب تحقيق وجوده الذاتي، عن طريق الإرادة الناجمة واختياره لقراره ومخاطرته، والأهم من ذلك مسؤوليته تجاه خياراته .

رفض كيركغارد التفسير التاريخي للدين لعدة أسباب ، أهمها انه فشل في إثبات المسيحية، كما أنه رفض أي نزعة تغيب الذات الفرديّة فيها ؛ لأنّ الحقيقة فيها خارجة عن الذات الإنسانيّة، في حين يود كيركغارد أن يعيد إنتاج الحقيقة والإيمان من داخل الذات الإنسانيّة، كما أن هذا النوع من التفسير للدين يشوبه التقريب والتخمين، فالتاريخيات لا تنتج يقينا، ما يعرض بذلك الإيمان المبني عليها إلى الزوال في أي لحظة إذا ما تم كشف زيفها، كما أن بناء الإيمان على المعرفة الإنسانية يجعله معلقا ومؤجلا، ذلك لأن المعرفة الإنسانية دائما رهن التطوير الذي لا نعرف إذا ما كان سينتهي أصلا .

يذهب كيركغارد أن الإنسان في رحلة بحثه عن الحقيقة و وجوده الذاتي وتحقيق فردانيته (أساس النظرة الدينية لكيركغارد) يمر بثلاث مراحل :

1.4 المرحلة الحسية: أين تتلذذ الذات بالآني وكل ما هو حسي، أين يسيطر التفكير الموضوعي في العالم دون أن يعطي الإنسان اعتبارا لوجوده الشخصي، ما يوقع الذات في ما أسماه كيركغارد في المرض حتى الموت(وهو عنون لمؤلفه يشرح فيه تفاصيل هذه المرحلة والمعاناة التي يمر بها الدون جوان الرجل الحسي) بسبب ما تعيشه من ملل ويأس الإرادة حين تضيع الذات في الماديات، و يشير كيركغارد هنا أن اليأس هو مفتاح الخلاص، فهو يعني الرغبة في تحقيق الذات، ولكن عدم

القدرة على فعلها، وعدم وجود إمكانية "عقلانية "لتنفيذها ، وهو.الذي يدفعه من خلال "قفزة" للانتقال إلى المرحلة الموالية من تحقيق فرديته ووجوده الحقيقي .

2.4 المرحلة الأخلاقية: تمتاز هذه المرحلة بقدرة الرجل الأخلاقي على الاختيار، وذلك لأنه توصل من المرحلة السابقة إلى أن يعي ذاته في استقلال عن العالم الخارجي المادي، لتصبح ذاتا واعية بإمكانياتها ما يجعل الرجل الأخلاقي مسؤولا اتجاه نفسه والآخر ومنظومة الأخلاق، إن هذا الارتباط بالآخر والمجتمع هو الذي يعيق في نظر كيركغارد التقدم نحو المطلق، وذلك لأن الإنسان في هذه المرحلة يعاني ضريبة فعل الاختيار، الذي يعيشه في قلق دائم فيما إذا كان اختار الصواب أم لا، وتبرير فعله أمام المجتمع، والحل لتجاوز هذه الأزمة، في نظر كيركغارد، يكمن في "قفزة الإيمان" أين يتوقف عن محاولة الفهم واستعمال العقل، ليدخل المرحلة الأخيرة لمقابلة المطلق.

3.4 المرحلة الدينية: وهي المرحلة التي نخاطر فيها بالقفز إلى المجهول، وذلك بأن نكون" أمام الله " وجها لوجه"، القفز إلى إله حي مشخص، مقابل الإنسان" الفرد "، فالمطلوب هنا حسب كيركغارد ليست الذاتية الزائفة للنزوات الجمالية الحسية، ولا الموضوعية الزائفة للتأمل الهيجلي، بل الذاتية القلقة للمستوى الديني(شطارة،2014، صفحة527) ، إذ يؤكد كيركغارد هنا أنه لا يمكننا تعقل فكر الإله، وأن جميع حجج البرهنة على وجود الله عقليا واهية ، ويسهل دحضها ، فلا يتبقى أمام الفرد سوى الإيمان الروحي بوجوده ، والقفزة هنا مخاطرة بكل شيء، على أمل أن تكون بين يدي الله ،أين يدرك الفرد ذاته ويضع نفسه في مقابلة مع الآخر اللانهائي المطلق –الإله– ، إذ يحتل مصطلح "The Individual befor God" مكانة مهمة في فلسفته ، ويعني أن تكون وجها لوجه مع المطلق وفي حضرته، أنت كفرد إنساني والله كفرد حي (المسيح) .. وهو ما جعله يرفع من قيمة الفرد في كتاباته وهو ما ضمنه مؤلفه "حاشية نهائية غير علمية" ، اذ يؤكد في كل نسقه الفلسفي أن الحقيقة ترتبط بالذات العينية وبالفرد ، و هو ما جعله يقول : "إن ما يهم هو اكتشاف حقيقة تكون حقيقة بالنسبة لي ، وأن أجد تلك الفكرة التي أعيش وأموت من أجلها " (برانت، صفحة14) ، فالحقيقة حسب كيركغارد تفقد إمكانية التعبير عنها في حال اتصلت بالحشد، ويترتب عن هذا حسب كيركغارد أن يكون الله وسيطا في كل عملية فهم، ولكن الشرط السابق لشرط التوسط، هو أن يكون الطرف فردا، فالله يتوسط الفرد وليس المجموع .

وذلك لأن الحشد شيء مجرد غير شخصي، ما يستبعد الله من أي عملية توسط "فالإله الشخصي لا يمكن أن يكون وسيطا لعلاقة غير مشخصة (Kierkegaard, 1944, p66) .

وبهذا يبلغ الفرد المرتبة العليا من الوجود كلما زاد درجة في الاعتقاد والإيمان ، ليصل بذلك في نهاية المدرج الديني إلى أعلى مراتب الوجود التي يتصل فيها الفرد بخالقه، و يكتنه الحقيقة المطلقة ...

يتضح لنا من خلال المدرج الأخير أن المسألة الدينية عند كيركغارد ترتبط بمقولات متعددة في فلسفته وهي الفرد، المحبة، التضحية والمعاناة، فحتى تكون مسيحيا حقانيا لابد أن تعيش معاناة الاختيار بين الفاني والأبدي، ولحظة الاختيار هي النقطة التي يتقاطع فيها الوقت مع الخلود – بالنسبة للفرد ، ومن خلال الاختيار الزمني ، تُنشئ الذات التي سيُحكم عليها إلى الأبد (McDonald, 2017).

ولما كانت التضحية أسمى ضروب الإيمان وتعبيرا كبيرا عن المحبة، يتسنى للفرد حينها الارتقاء إلى المطلق ومواجهته ، فمن يريد حالات الوجود الأسمى عليه أن يضحي بالأدنى، ومن أراد الإلهي السرمدي فعليه أن يضحي بالبشري الفاني، وهي النظرة التي نشأ عليها في الحقيقة منذ صغره ، عندما كان يلمحه والده يتألم فيقول له أنك الآن تشبه المسيح وتعيش المسيحية الحقه (برانت، صفحة10) ، فلطالما رسخ فيه والده الصورة القاتمة للمسيحية القائمة على التوتر والتمزق الداخلي ، و يتخذ كيركغارد في بعض مؤلفاته أمثلة عدة لتوضيح العلاقة بين المقولات السابقة الذكر، وبين روح الإيمان الحق، ومن بينها كتابه الرجعي *(والذي اعتمد الكثير من الباحثين والدارسين لفكر كيركغارد ترجمته إلى التكرار)، وكذا خوف ورعدة (كما أشرنا إلى هذا في نقاط عدة من المقال) ، والتي هي في الأساس كتب موجهة بصورة ما إلى خطيبته السابقة ريجينا أولسن لتتمكن من معرفة أسباب انفصاله عنها، وعن الألم الكبير الذي يعانيه المحب المضحي لاستعادة المفقود الذي خسره في لحظة زمنية معينة، كما أعرب في ثناياها عن أمله الكبير في اتصاله بها من جديد ، اتصالا متكررا مطلقا لا يفنى ، حتى وان كانت كذكرى لرجل عجوز طاعن في السن تفيض عليه خشوعًا وتقوى دينية كبيرة، يعيشها فردًا مفردًا وحدانيًا في الوجود.

يورد لنا كيركغارد في كتابه "الرجعي "محنة النبي أيوب في فقده لأولاده وثروته وأصدقائه دون سبب قابل للفهم، وتناول فيه شخص النبي أيوب في صورته كفرد عادي لا نبي ، أين تمكن من عيش المفارقة وخوضها بنجاح في صراعه بين اعتقاده وإيمانه بكونه محقا فيما يعمل وأنه محب لله، وعلى علاقة صحيحة

معه، والله يعلم ذلك أيضا لكنه يناقض الوجود، وأنه على ثقة بإمكانية الله على حل محنته، وفي الأخير لا يبقى أمامه إلا أن يتبع ما لا يفسر عقليا بل قلبيا، إذ لا بد أن تحصل هذه المحنة على معمودية دينية، واسم ديني ثم لا بد من وضعه في سياق خلاق للفحص ومن ثم يأتي هذا التعبير : اختبار (كيركغارد ، 2013، ص159) ، هذا الصراع الذي عايشه أيوب وإذعانه للرب كان خاتمته أن ضاعف له الرب ما كان له، ليحصل بذلك على الرجعى فنال حياة ثانية بأضعاف ما كان يتمنى.

هذا ويؤكد كيركغارد لا معقولية الدين من خلال أمثولة التضحية الإبراهيمية أيضا، والتي ضمّن شرحها كتابه "خوف ورعدة "، أين يتعارض المطلب الإلهي من إبراهيم في ذبح ابنه مع نداء العقل والأخلاق ، إلاّ انه ومع هذا فضّل إبراهيم الاستجابة لمطلب الإله من خلال قوة الإيمان، فالتنازل عن العقل والقيم الأخلاقية مقابل معرفة الله هو عين الاعتقاد الخالص، فالحياة الدينية تقتضي الاستسلام والإذعان، الخضوع المطلق للمطلق، وهذا هو الإيمان حسب كيركغارد، وهو أيضا اختيار، وإن كان اختيارا صعبا(شطارة،2014، صفحة528) . ، وتبريرا لإيمان إبراهيم ، يقول كيركغارد " و بالإيمان خرج إبراهيم من أرض آبائه وأصبح مقيما في أرض الميعاد ، ترك شيئا واحدا وراءه ، و أخذ شيئا واحدا معه، ترك فهمه الدنيوي وأخذ معه الإيمان "(كيركجور، صفحة 33.) ، إن هذه اللحظة القوية للإخلاص لنداء الرب وصوت الإيمان الداخلي ، كانت أساس الفوز المضاعف الذي ناله إبراهيم فيما بعد ، فلقد استرجع ابنه بفضل الإيمان وحده .

5. فردانية الدين في الميزان

إن دعوى كيركغارد لفهم جديد للدين أساسه الفرد المنفرد، الذي يرتبط بالإله مباشرة عن طريق الإيمان دون حاجة إلى واسطة مجتمعية ، وإصراره على أن علاقة الإنسان بخالقه هي علاقة ثنائية طرفاها الفرد والله، لان الله لا يتوسط الحشود، عرفت تقييمات مختلفة في الساحة الفكرية والفلسفية ، فمنهم من رحب بها وساعد على تطويرها ونشرها ، ومنهم من رأى أنها تعبير عن جنون مختل عاش حياته وحيدا ولم يلق عزاءه إلا في تحريف الدين .

1.5 ايجابيات موقف كيركغارد الديني :

من أهم النقاط الإيجابية في موقفه الديني وبصمته في تغير التراث المسيحي والدعوة إلى تجديده نجد :

أ- تنكشف عبقرية كيركغارد في أسلوبه المتميز في الكتابة، والتي لطالما كانت بمثابة عبئ عليه، و إبداعه في المعاني التي يرغب في التعبير عنها، فلا يقدر أي كان تمثل تلك اللحظات الوجودية المفارقة التي تنكشف فيها الحقيقة المطلقة أمام الفرد، ولا الحديث بعمق عن لحظات الاختبارات التي يوضع فيها الفرد المنفرد في اختبار قوة الإيمان .

ب-إن محاولة كيركغارد الخروج عن النسقية العمياء التي عرفتها الشعوب الأوروبية آنذاك من سيطرة المذهب العقلي المثالي على مناحي مختلفة من الحياة ، يجعلنا نشيد بنظرته التجديدية ، خاصة وأنها مست محورا حساسا في حياة الإنسان وهو الدين،خاصة و أنه حاول ربطه بما يعيشه الفرد في يومياته، بأسلوب يوصل الكل إلى اكتناه الحقيقة دون تمييز بين العامة والنخبة ، وكذا تبسيطه لمفاهيم الدين و تطهيره من الممارسات الزائفة التي تضع في حقيقتها فاصلا بين الرب والإنسان وتعيق طريق الإيمان الحق ، و لربما كانت قوة كيركغارد كما أشار إليه "رينيه ماهو" تكمن فيما يشكل حده بالذات: غياب وازدراء لكل مذهب، فهو يرفض أن يأتي بحقيقة متكونة، لكنه يوقظ ويحيي الواقع الذي يحمله كل واحد في ذاته.

ج- إن هدف كيركغارد من طرحه لنظرة جديدة للدين هو الدعوة إلى عيش الدين في حياتنا وكتناه حقائقه الوجودية ، لا اختزاله في مجموعة تعاليم هدفها إقناع الحشود في تطبيقنا للدين ، لهذا اختزل علاقة الفرد–الدين في بعدين أساسيين لا ثالث لهما : الفرد والإله ، وهو ما جعله في نظر برودولف كاسنر آخر بروتستانتي كبير، ويضيف أنه " لا يمكننا إلاّ أن نقارنه بمؤسسي المسيحية وبلوثر وكالفن، وجميع الباقين يبدون صغارا إلى جانبه، وكان السؤال الأساسي بالنسبة إلى كيركغارد: كيف أصير مسيحيًّا؟ وما كان لغير بروتستانتي أن يجد مثل هذه الصيغة، ولا يمكن أن نجد له من قرين إلا لدى دوستويفسكي، والحق أن كيركجور لا يمكن أن يوضع إلا بجانب الشاعر الروسي، فهما يسيران جنبا إلى جنب، ولا يمكن لأي مفكر آخر من ذلك العصر أن يتجاوزهما."

د- عرفت وجودية كيركغارد وكذا فلسفته الدينية صدى واسعا في الساحة الفكرية خاصة بعد وفاته ، فنجد العديد من الفلاسفة الذي تأثروا بها أمثال : غابريل مارسيل الذي رسى على دعائم الوجودية الكيركغاردية بعد مسار تتلمذه وبحثه الفلسفي، وكذا كارل ياسبرز الذي بسط المفاهيم الكيركغاردية اللاهوتية بأسلوب فلسفي للتأكيد على رفضه البناء العقلي للوجود ، وأيضا هيدغر الذي وسع تصور كيركغارد الوجودي خاصة لاهوته القائم على عدة مفاهيم كالخطيئة والقلق التي ألبست معه ثوبا وجوديا تنكشف من خلاله كينونة الفرد ووجوده الحقيقي...، وكذالك روائيون ومفكرون أمثال فيدور دوستويفسكي الذي عبرت روايات متعددة له عن تأثره بوجودية كيركغارد ، و كارل بارت وغيرهم...

2.5 سلبيات موقف كيركغارد الديني :

لم تلق نظرة كيركغارد الدينية رضا أطراف كثيرة في الساحة الدينية في عصره، وحتى في غيرها من الفلسفات و الآراء الدينية في عصور لاحقة ، ومن أبرز الانتقادات التي وجهت لموقف كيركغارد الديني ما يلي:

أ- رفضت الكنيسة اللوثرية موقف كيركغارد من الدين ، واعتبرته تطرفا خاصة وأنه يدعوا إلى انصراف المجتمع عن الكنيسة وتقليص دورها في الدعوة إلى الدين، كما شددت على أن المسيحية ليست ديانة فردانية تخص الفرد وحده كما يدّعي كيركغارد، بل تُعنى بالحياة المجتمعية وتعطي أهمية كبيرة للطبيعة البشرية (Pelikan, 1950, p42)

ب-لقد غالى كيركغارد في فردانيته ، فلا يمكن للفرد العيش في عزلة عن المجتمع مهما قل تأثيره عليه ، وهو ما ينطبق على كافة مجالات الحياة المعرفية والاقتصادية وحتى الدينية ، فللمجتمع دور هام في تناقل التعاليم الدينية والتي قد لا يتمكن الفرد من التوصل اليها بمفرده ، بغض النظر عن كيفية الممارسة ، كما أن أبسط ما يدعو إليه كيركغارد تناقلته المجتمعات من عصر الأنبياء إلى

عصره ، فلولا المجتمع لما كان لكيركغارد نفسه علم عن المحن التي عايشها الأنبياء ولا العبر التي نستقيها عن قصصهم .

ج- هذا وقد ذهب أدورنو إلى رفض فكرة عزلة الذات عن المجتمع ، واعتبرها خطوة لا أخلاقية (Adorno,2003. P60)، وهو ما ذهبت إليه النظرية النقدية إجمالا ، ففي منظورهم أن فلسفة كيركغارد على العموم أثرت سلبا على الحركة الثقافية الألمانية في القرن العشرين خاصة و أنها جعلت الإنسان محاصرا بتناقضات الذات والهوية.

د- إن تصوير كيركغارد الإيمان على أنه مسألة شخصية يعيشها الإنسان بمفرده وحديثه عن كون المدرج الديني على أنه أرقى مراحل الوجود ، والحديث عن تفاصيل هذه المرحلة من حياة الفرد المنفرد الذي ينتهي به المطاف إلى التواجه مع الإله ، و إدراك الحقيقة المطلقة ، كل هذا يتعارض مع حقيقة كونه لم يستطع القفز إلى هذه المرحلة وعيش حياة دينية كالتي صوّرها في كتاباته ، فأنى له وصفها بتلك الدقة في حين أن حياته التي عاشها خالية مما تحدّث عنه واكتفى بتضحيته بمعشوقته على أمل رجعاها إليه كأبسط متطلبات الحياة الدينية ، والتي اعتبرها كولن ولسن مجرد وسيلة لعدم نعته بعدم الاتزان، كما لم تكن له الجرأة ليقفز القفزة الأخيرة ليعيش المدرج الديني بكل ما يستدعيه كما أشار إليه في كتاباته .

هـ- ثم إن الحقيقة الدينية حسب كيركغارد واحدة ، نعيشها بنفس الطريقة ، ألا يدعوا هذا إلى التفكير إن هذا الفرد سيلتقي بهذه الصورة مع فرد آخر و آخر و آخر ... في نفس الحقيقة ، يعيشونها بنفس التفاصيل، ألن نتحدث حينها عن ممارسة جماعية للحقيقة الدينية الواحدة ؟ بلى ..وهنا يتلاشى مفهوم فردانية الدين التي دعا إليها كيركغارد ، فهي تخص الممارسات لا الحقيقة الدينية ، وبهذا تتحد الحقيقة الذاتية بالحقيقة الموضوعية.

و- كما أن ربط كيركغارد موقفه الديني بمقولات كالخطيئة واليأس والقلق والهم و الاغتراب ... يجعل الحياة مأساوية لا فائدة و لا غاية منها ، وهو إجحاف حق في ما تحمله

الحياة من جماليات لابد من اغتنامها وعيشها في سعادة ، لا في هم وألم ، فبالرغم من عبقريته إلا أنه خارق في الإحباط (الشمري، 2010 ، صفحة 173 .)

ز- إن رفض كيركغارد التفسير العقلي للدين وبنائه على أساس الإيمان الفردي قد يؤدي بنا إلى الوقوع في الخرافة ، فتبرير الإيمان ضروريٌّ لأجل صيانته من الخطأ ، كما ذهب في ذلك جون بيشوب(جوادي ، الشهرستاني، 2012م،صفحة 271.) ، كما أنّ بناء الإيمان على التجربة الذاتية يضعه في مهبّ مخاطرة لاعينيّة الإيمان ، ما يجعل القفزة التي نادى بها محل ارتياب هل ستضعنا بين يدي الرب أم الشيطان.

ح- ويضيف الشيخ حيدر حب الله في قراءته لموقف كيركغارد الديني ،أنه من تأثيرات تفكير كيركغارد عزل الدين عن الحياة العامّة، وفقده قدرته على التأثير الاجتماعي، وفي هذا يُبدي الدكتور الألماني جوترفرايد كونزلن . وهو يتكلّم عن خصخصة الدين . امتعاضَه من المآلات التي وصل إليها الدين في الغرب، بخسارته قدرته على التأثير، بل فقد دوره كقوّةٍ موجّهة للحياة بشكل عام على حدّ تعبير ماكس فيبر (1920م)، الأمر الذي أدّى للفصل النهائي بين المعتقدات الدينيّة والحقوق المدنيّة(كونزلن، ، 1999م) ، وهذا يعني أنّ التأثيرات الإيجابيّة لتفكير كيركغارد في داخل النفس الفرديّة الإنسانيّة تضعنا أمام انحسار، بل شبه تلاشي عجيب للدين من الحياة العامّة، ومن ثمّ فنحن أمام زوال كلّ السياقات الاجتماعوسياسيّة التي يمكنها أن توفّر للفرد اندفاعه نحو التجربة الدينيّة، وذلك بسبب هيمنة العلمانية . بما فيها نزعتها الأخلاقيّة . التي سمح لها بأن تكون قوّة موجّهة في الاجتماع البشري بينما رفض الدين أن يكون كذلك(حب الله،2018).

6. خاتمة

انصب هدفنا في هذا المقال على محاولة تسليط الضوء على راهنية اللاهوت الذي صاغه كيركغارد والأهمية البالغة في توضيحه العميق لمفهوم الإيمان، وأسئلته المحرضة على التفكير خارج سياق الأنساق المغلقة ، وهو ما نحتاجه بشدة في عالمنا الإسلامي للخروج عن الممارسات الدينية العشوائية التي شوّهت روح الإسلام وتعاليمه ، التي تدعو إلى الأخوة والمحبة وتطهير النفس والارتقاء بها إلى تعبد الخالق بيقين قلبي لا مثيل له ينجم عنه ضمير ديني مرتاح .

لقد برزت محاولة كيركغارد في رسم معالم جديدة للممارسات الدينية بأسلوب فني مختلف عن التعابير المستعملة في الخطابات الدينية المألوفة ، فاتبع الأسلوب القصصي باستعمال شخصيات مستعارة تخفي مواقفه وشخصيته الحقيقية ، من خلال توظيف حكم وملح معبرة في فقرات قصيرة تشد القارئ لبلوغ الفكرة–الهدف، لإرساء قوانين جديدة للحياة والتفكير الكوني ، كل ذلك عن طريق الأسلوب الغير المباشر الذي اتخذه كيركغارد منهجا في الكتابة ، والذي يعبر عن الطابع اليومي لحياته منذ الطفولة .

إن الإيمان بالنسبة إلى كيركغارد جوهرة روحية فردية لا يمكن تحققها عن طريق الطقوس الجماعية ، ولا يمكن إدراكها عن طريق تفسيرات عقلية، بل هو نتاج تجارب واقعية تتخالج فيها جوانية الفرد مع الحقيقة المطلقة في رحلة مليئة بالخوف والقلق والشعور بالخطيئة التي تساعد الفرد للتوجه نحو اكتشاف وجوده الخاص و الحقيقي في صيرورة دائمة، أين لا يتحقق الإيمان الفعلي إلا عن طريق تكرار العرفان الذي يجدده ويقويه ، وهو ما يؤكد لا معقولية الدين ، فهو ليس معرفة ولا فلسفة ولا منطقا ، بل تجربة وجودية خالصة ، ما يجعله خارج نطاق الكلية فهو لا يتحقق من خلال الاستقراء أو الاستنباط، أو المنهج التاريخي بل أساسه الإرادة الفردية .

على هذا الأساس صاغ كيركغارد مسألة الإيمان كبعد معرفي يتسنى للفرد من خلاله بلوغ الحقيقة ، التي لطالما أكد أنها ذاتية في رفض منه الاتجاه العقلي والمثالي السائد في عصره والذي كان لهيجل الدور الكبير في إرساء قواعده آذاك ، كما أن التطلع الهيجيلي لإثبات أن الدين متاح لتأويل يظهره بعد كل شيء كمستودع للحقيقة الموضوعية، فيعتبره كيركغارد نظرية أسلمت نفسها بسهولة إلى التصورات التي يكون

فيها الإنسان، وليس الله، الموضوع الأساس للوعي الديني، وهذا يؤكد فقط أن ما يسمى «التأويل التأملي» قد شوّه تماماً معنى المسيحية (صنيج ، 2018)

كما أن الذين يؤسسون إيمانهم على البراهين الدينيّة فلقد خسروا الإيمان الحقيقي، وبلغ بهم الأمر أدنى مراتب التديّن، بل أن الإيمان الحق يقوم على تصميم روحي باطني وجودي بحت .

إن نظرة كيركغارد الدينية والتي حارب من خلالها التوجه العقلي في تبرير الدين أسست إلى منظور ديني جديد يتماشى مع نسقه الوجودي عامة ، أساسه الفرد المنفرد بكل حالاته الوجودية ، وهو في الأصل الفرد المؤمن الذي يرتقي بقوة اعتقاده و إيمانه إلى الحقيقة المطلقة التي اعتبرها قضية شخصية يتحقق من خلالها وجود الفرد الخاص ، وبهذا يبلغ الفرد من خلال ذاتيته وتجاربه المعاشة في جوانيه فريدة إلى الحقيقة المطلقة عن طريق مقابلة الفرد للإله ما يجعل كتابات كيركغارد حقا أهجية طويلة للدين وللفلسفة ، كما اعتبرها آلان.

نؤكد في الختام على أن النظرة الكيركغاردية لطبيعة العلاقة بين الفرد والإيمان تؤكد على كون الدين قضية شخصية وفردية تماما، ولا تحتاج إلى الحشود وطقوس البدعة، التي ما هي إلا تزييف لروح الدين وقدسيته، ويؤكد كيركغارد هنا أن الدين هو علاقة بين الفرد وربه ولا ينبغي لا للدولة ولا لرجال الدين التدخل بها، فهي علاقة استثنائية تنكشف من خلالها حقيقة الفرد في أعلى مراتب وجوده، الوجود الديني، والذي تتحقق من خلاله المفارقة حين يتوحد ما يعني أن توجد مع الحقيقة الخالدة، ليتبين بوضوح أن موقف كيركغارد النقدي هذا لم ليكن موجها للدين ومعطياته في ذاتها، وإنما كان نقدا موجها لممارسات رجال الدين .